﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مظاهر قدرته شاهدة بجزيل منّته وناطقة بعظيم رحمته

لمّا ذكر الله تعالى عظيم قدرته على تحقيق النَّصر للمؤمنين، أتى بأنواع من دلائل قدرته، ومظاهر رحمته في العالَمَيْن العلويِّ والسفليِّ، ولمّا أخبر سبحانه أنَّ بيده ملكوت السّماوات والأرض؛ بيَّن أنَّه سبحانه سخَّر ما فيهما لمنفعة ابن آدم ولإقامة مصلحته، ولمّا كان سير السفن برفق وتؤدة في البحر العجاج المتلاطم بالأمواج أمرًا عجيبًا يبعث على الإيمان التامِّ، والتسليم الكامل؛ بيَّن سبحانه أنَّ إمساك السماء على متن الهواء بغير عمد أشدُّ عجبًا وأكثر إبهارًا؛ رأفة منه بعباده ورحمة؛ ليدفع سبحانه عباده إلى شكر آلائه، وحمده على عظيم نعمائه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرَ﴾: (سخر): التَّسخير: التَّذليل والتَّهيئة، وهو: سياقة الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهرًا، والمُسَخِّر هو المُقَيِّض للفعل[2]، وأصل (سخر) يدل على احتقارٍ واستذلالٍ، ومن ذلك قولنا: سخَّر اللهُ تعالى الشَّيءَ وذلك إذا ذَلَّلَه لأمره وإرادته[3].

وسخَّره تسخيرا: كلَّفه عملًا بلا أجرة[4]، وسَخَّرَهُ يُسَخِّرُه سِخْرِيًّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 450، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 84، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 118.

(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سخر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).

وسُخْريًّا، وسَخَرَهُ: كلَّفه ما لا يريد وقَهَرَهُ، وكلُّ مقهورٍ مُدبَّرٍ لا يملك لنفسه ما يخلِّصه من القهر، فهو مسَخَّرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20][1].

2) ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: (فلك) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ[2]، والفُلْك: السَّفينة، ويُستعمل في الواحد والجمع، وفي المذكَّر والمؤنَّث[3].

والفَلَك: مَجْرَى الكواكب وواحد أفلاك النُّجوم، وهو موج مكفور تجري فيه الشَّمس والقمر والكواكب، وسُمّي بذلك لكونه كالفُلْك لاستدارته كالفلكة، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40][4].

والفَلَك: موج البحر إذا ماج في البحر، فاضطَّرب وجاء وذهب[5]، وفَلَكُ كلِّ شيء: مُستَدارُه ومُعظَمُه[6]، والفَلْكَة: قطعة الأرض المستديرة المرتفعة على ما حولها في غِلَظٍ وسهولةٍ، وهي كالرَّحَى[7].

3) ﴿وَيُمْسِكُ﴾: (مسك) أصلٌ يدلُّ على ضبط الشَّيء وحَبْسِه حبسًا قويًّا أو تَحَبُّسُه[8]، وإمساكُ الشَّيء: التعلُّقُ به وحِفْظُه، قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يحفظها[9]، واستمسكتُ بالشَّيء: إذا تحرَّيتَ الإمساك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43][10].

ويقال: أمسكتُ به، وتَمسَّكتُ به، ومَسَكتُ به واسْتَمْسَكتُ به ومَسَّكتُ به، كله بمعنى: اعتصمتُ به واحْتَبَسْتُ[11].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فلك).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فلك).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).

وأمْسكتُ عن الكلام: سكتُّ[1]، وأمسكتُ عنه كذا، أي: منعتُه، قال تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الزمر: 38][2].

4) ﴿لَرَءُوفٞ﴾: (رأف) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّة والرَّحمة[3]، والرَّأفة: أشدُّ الرَّحمة، وقد رؤُفْتُ بالرَّجل أرْؤُف به رَأْفَةً ورَآفَةً، ورَأفْتُ به أرْأف، ورئفت به رأفًا، فهو رؤوف ورَئِف نحو يَقِظ وحَذِر[4].

والرَّأفة أخصُّ من الرَّحمة وأرقُّ[5]، ومن صفات الله ﷻ الرَّؤوف، وهو الرَّحيم لعباده، العطوف عليهم بألطافه[6].

وفيه لغتان قُرِئ بهما: رَؤوفٌ على وزن فعول، ورَؤُفٌ على وزن فعُل[7].

5) ﴿رَّحِيمٞ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على اتِّساع في الشَّيء مع رقَّة وعطف ورأفة[8]، الرَّحمة: رقَّة وتعطُّف يقتضي الإحسان[9].

والرَّحمة أيضًا: المغفرة؛ لأنَّها من مقتضيات الإحسان[10]، والرَّحمة في قول نوح عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28]؛ يعني: النُّبوَّة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 105]؛ أي: بنبوَّته[11].

ومن أسمائه ﷻ الرَّحمن الرَّحيم، وكلاهما معناه ذو الرَّحمة، لكن الرَّحمن لا يُطلق على غير الله، والرَّحيم قد يُطلق على غير الله، والرَّحيم أيضًا هو الذي كَثُرَتْ رحمتُه، والرَّحمن الذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيء[12].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 239.
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (رحم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فضائل الله على عبـاده كـثيرة، ونعـمه عليهم وفـيرة، ورحمته بهم كبيرة

يذكِّرنا المولى ﷻ في هذا البيان القرآنيِّ، والاستفهام التقريريِّ ببعض نعمه وفضائله سبحانه علينا فيقول: ألم تعلم أيُّها المخاطب العاقل أنَّ الله سبحانه قد ذلَّل لكم أيُّها النّاس بقدرته جميع ما في الأرض من الدَّوابِّ والبهائم والزُّروع والثِّمار، وكلِّ ما تحتاجونه في قضاء معاشكم وشؤون حياتكم، والسُّفنَ تجري في البحر بتسخيره وتيسيره، ويمسك سبحانه السَّماء بقدرته أنْ تسقط على الأرض إلا بمشيئته وإرادته، إنَّ الله بالنّاس لذو رأفة عظيمة ورحمة واسعة بهم رغم ظلمهم وابتعادهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

آلاء الله عظيمة متكاثرة، وهباته جليلة وافرة

جاءت هذه الآية الكريمة في نسق التَّذكير بنعم الله واقعة موقع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: 63].

فهي من عداد الامتنان والاستدلال، فكانت كالتَّكرير للغرض؛ ولذلك فُصِلت ولم تُعطَف.

وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره بعد التَّذكير بنعمة إنزال الماء وإنبات النَّبات[2].

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

الله يمتنُّ على عباده بالنِّعم، ويصرف عنهم عديد النِّقم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتَّقرير[3]؛ إذ الآية: امتنان بتعداد النِّعم، ففيها سؤال ينطوي على معنى التَّقرير ولفت النَّظر عمّا إذا كان الرّائي لا يرى آثار قدرة الله تعالى في كونه ويقنع بقدرته على تحقيق ما يعد[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 624، والهرري، الحدائق: 18/ 409 - 410.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.

(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 201، ومحمد دروزة، التفسير الحديث: 6/ 71، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471.

(4) محمد دروزة، التفسير الحديث: 6/ 71.

ومعناه: انتبه يا ابن آدم من غفلتك وإعراضك، واعلم أنَّ الله تعالى هو الذي وهبك ما ترى[1]، وإنَّما سيقت الآية على صورة الاستفهام لأجل لفت الانتباه، والتَّشويق لمضمون السُّؤال، ولتكون الإجابة إقرارًا من المجيب على نفسه، فلا تكون له حجَّة على ربِّه ﷻ.

وقيل: الاستفهام هنا للإنكار بمعنى نفي الوقوع، وهو داخل على (لم) النّافية، ونفي النَّفي إثبات، فهو بيان لأنَّ الله سخَّر ما في الأرض، والمعنى: قد سخَّر الله لكم ما في الأرض، وكأنَّ الاستفهام هنا مع النَّفي تنبيه؛ لأنَّ الله تعالى ذلَّل ما في الأرض لكم، فكيف تغفلون عنه أو تعرضون[2]؟

فنُزِّلَتْ غفلةُ كثير من النّاس عن الاعتبار بهذه النِّعمة والاعتداد بها منزلةَ عدمِ العلم بها، فأُنكر ذلك العدم على النّاس الذين أهملوا الشُّكر والاعتبار[3].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَرَ﴾ مادّة وصيغة:

الأصل في الرُّؤية أنَّها لَحْظُ العينِ الشَّيءَ حال اتِّجاهها إليه، فتُطلق على إدراك المرئيِّ، إمّا بالحاسَّة، وهي الرُّؤية البصريَّة، وإمّا بما يجري مجرى الحاسَّة؛ كالتَّفكُّر والتَّخيُّل والعقل، وهي الرُّؤية القلبيَّة، أو العلميَّة[4].

نعمة الله سابغة، وأياديه واسعة، وآلاؤه كثيرة، لا تراها إلّا عين البصيرة

والرُّؤية هنا في هذه الآية رؤية قلبيَّة وعلميَّة وبصريَّة؛ أي: ألم ينتهِ علمك أو تفكَّر[5]؟ ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربِّك السّابغة، وأياديَه الواسعة[6]؟ فالمقصود من رؤية البصر: التَّفكُّر بالبصيرة، وحصول العلم المؤدّي إلى اليقين بربِّ العالمين.

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 343.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020، وثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 6/ 344.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رأى).
(5) الهلال، الثري الجامع: 7/ 345.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.

بلاغة الإدماج في الاستدلال على انفراده بالتّسخير:

في الامتنان بالتَّسخير دليل على انفراد الله العليّ الكبير

لمّا كان التَّسخيرُ تسهيلَ الانتفاع - بدون مانع - بما فيه إرادة التَّمنُّع، وكانت الآية الكريمة مسوقة لبيان أنَّ الله تعالى قد سخَّر للنّاس جميع ما في الأرض، وسخَّر لهم الفُلْك الجارية بيُسرٍ في البحر الخضمِّ، وأمسك السَّماء بقدرته سبحانه كيلا تسقط على الأرض - لمّا كان ذلك كذلك فقد دلَّ ذلك على أنَّ الذي سخَّر كلَّ هذا إنَّما هو الله الذي خلقها وأوجدها.

ولمّا كانت هذه المخلوقات لا يخرج شيء منها من دائرة التَّسخير - كبر أو صغر - فقد دلَّ ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والإنشاء والتَّسخير إذ لم يكن له منازع ولا شريك.

ففي الامتنان بالتَّسخير دليل على انفراد الله العليِّ الكبير، فهو إدماج، والتَّقديرُ: (فهو الرَّبُّ الحقُّ)[1].

وتظهر بلاغةُ الإدماج في أنَّه لا يظهر منه إلّا إحدى الفكرتين، أو أحدُ الغرضين، أو أحد الوجهين، فإذا تأمَّل المتفكِّر ظَهر له المُدْمَجَ وسَرَّه هذا الإدماج.

بيان المُخاطب في الآية:

يخاطب الله مِن العبيد مَن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ صالح لكلِّ ذي نظر وعقل، حيث يرى فضل الله تعالى في هذه الكائنات التي سخَّرها الله للإنسان، وجعلها مستجيبة له، إذا هو تجاوَبَ معها، ووجَّه قواه إلى الإفادة منها، وذلك بالتَّعرُّف على الطَّريق الذي يوصله إليها، ويضع يده على موضع الخير منها[2].

فالخطاب يشمل كلَّ مخاطَب وعاقل من بني آدم[3]؛ أي: لقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1090 - 1091.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 201.

علمت أيُّها العاقل أنَّ الله تعالى سخَّر لكم يا بني آدم ما في الأرض من دوابَّ وشجر وأنهار، وغير ذلك ممّا تحتاجونه لحياتكم، وسخَّر لمنفعتكم السُّفن التي تجري في البحر بتقديره وإرادته وإذنه[1].

فائدة تتابع المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾:

لم تترك الآيات حجَّة للمنكِرين، ولا شبهة للمعترضين

في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ جملة من المؤكِّدات تتمثَّل في الحرف المشبَّه بالفعل: ﴿أَنَّ﴾، وهو مفيد للتَّوكيد، وفي تقديم المسند إليه (وهو لفظ الجلالة) على المسند الفعليِّ ﴿سَخَّرَ﴾ المتضمِّن ضميرًا يعود على المسند إليه، فأفاد تكرير الإسناد تقوية الحكم، وفي التَّعبير بالماضي المفيد لتحقُّق الوقوع، وفي وقوع الجملة موقع مفعولي فعل الرُّؤية المسبوق بهمزة الاستفهام التَّقريريَّة، والتَّقرير ضرب من ضروب التَّوكيد.

وهذا الحشد من المؤكِّدات في هذه الجملة السّامية قليلة المباني يدلُّ على أهميَّة ما سيقت الجملة لأجل الدَّلالة عليه، وهو تفرُّد الله تعالى بالخلق والتَّقدير، والتَّذليل والتَّسخير.

ولمّا كانت هذه الحقائق ممّا قد ينازع فيها الملحدون فينكرونها فقد حسن أن يؤكَّد الكلام بأكثر من مؤكِّد، فضلًا عن أنَّ كثيرًا من النّاس عن تدبُّرها غافلون، فنُزِّلوا منزلة المنكِر لتغافلهم خروجًا بالخبر عن مقتضى الظّاهر[2].

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾:

لولا الله القدير لما كان خلق ولا تسخير

قُدِّم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿سَخَّرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ لإفادة تقوية الحكم وتقريره لدى السّامع، ذلك أنَّ الفعل ﴿سَخَّرَ﴾ مسند إلى لفظ الجلالة، وهو يحوي ضميرًا مستترًا تقديره (هو) يعود - أيضًا - على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، فكأنَّه قد أُعيد الإسناد مرَّتين[3].

(1) طنطاوي، الوسيط: 9/ 337.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 59، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 60.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

بيان مَفْعولَي الرّؤية العلميّة:

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ يحتمل أن تكون الرُّؤية العلميَّة، وهي تتطلَّب مفعولين، وقد سدَّت مسدَّهما هاهنا الجملةُ الاسميَّة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ فـ﴿أَنَّ﴾ وما في حيِّزها سدَّت مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ لأنَّها علميَّة[1].

مَن لم يرَ بعين البصيرة عرَج إيمانُه بأقدام كسيرة

دلالة التّعبير بـ﴿سَخَّرَ﴾ مادّة وصيغة:

التَّسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع، وهو يُؤْذِنُ بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التَّسخير، "وأصلُه: تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التَّمنُّع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الدّاجن من الخيل، والإبل، والبقر، والغنم ونحوها بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان، ثمَّ أُطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يُعَذِّر الانتفاعَ به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التَّغلب عليها بتعرُّف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره، وبالاحتيال على تملُّكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللُّؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنَّقر للمعادن، ومثل التَّشكيل في صنع الفُلك والعَجَل، ومثل التَّركيب والتَّصهير في صنع البواخر والمزجيّات والصّياغة، ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشَّمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء واللَّيل والنَّهار، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض، وما لا يحصى ممّا ينتفع به الإنسان ممّا على الأرض، فكلُّ ذلك داخل في معنى التَّسخير"[2].

لولا تسهيلُ اللهِ للإنسانِ الانتفاعَ بدون ما يمنع لما كان يستقيمُ شيء له أو يخضع

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ﴾ أريدَ به تسخير الانتفاع بها، فما كان للخلق

ذلّل الله تعالى للخلق الانتفاع، ويسّر لهم الاستمتاع بما وهبهم من أبصار وأسماع

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 470، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.

به انتفاعٌ وكان ميسَّرًا له في الاستمتاع به فهو كالمسخَّر له على معنى تمكينه منه[1].

فهو مجاز في الانتفاع؛ أي: ذلَّل لكم ما في الأرض، فلا أصلبَ من الحَجَر، ولا أحدَّ من الحديد، ولا أكثر هيبة من النّار، وقد سخَّرها لكم وسخَّر الحيوانات أيضًا حتَّى ينتفع بها من حيث الأكل والرُّكوب والحمل عليها والانتفاع بالنَّظر إليها، فلولا أن سخَّر الله تعالى الإبل والبقر مع قوَّتهما حتَّى يذلِّلهما الضَّعيف مِن النّاس ويتمكَّن منهما لما كان ذلك نعمة[2].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾:

في الاختصاص بالتَّسخير دليل منَّة، وبرهان نعمة

اللّام في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ للاختصاص، وهو أصل معانيها[3]؛ أي: أنَّ الله تعالى قد ذلَّل لعباده ما في الأرض لينتفعوا به، فاختصَّهم بهذه المنَّة.

ويجوز أن تكون للتَّعليل؛ أي: فعل ذلك لأجلكم، وعلى أيٍّ من التَّأويلين فهو دليل منَّة، وبرهان نعمة.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

في التَّقديم معنى الاهتمام، ليبتهل في شكر النِّعم الأنام

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ على المفعول الصَّريح للاهتمام بالمقدَّم؛ لأجل تعجيل المسرَّة والتَّشويق إلى المؤخَّر[4]، ولبيان أنَّ التَّسخير من الله تعالى إنَّما هو ﴿لَكُم﴾، ليذلِّل كلَّ ما فيها لإرادتكم ورغباتكم، ومعاشكم، فكلُّ ما فيها ظاهرًا فوق أرضها من زروع وثمار، وغابات، وجبال ووهاد، وما في باطنها من معادن وكنوز، وفي بحارها من لآلئ، ولحم طريٍّ، كلُّ هذا سخَّره الله تعالى وذلَّله لكم أنتم، فهي نعم تنادي مَن أُنعِم عليه بها بشكرها[5].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 558.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 183.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020.

معنى ﴿مَّا﴾:

سخَّر الله تعالى كلَّ ما في الأرض للنّاس مذلَّلًا، رحـمـةً منه وتفضُّلًا

﴿مَّا﴾: موصول مبهَم يقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل[1]، وهي هنا تشمل كلَّ شيء ممّا في الأرض في ظاهرها وفي باطنها من حيوان وجماد وزروع وثمار وطاقة ومعادن وبترول وكنوز ... إلخ؛ للانتفاع بها وللدَّلالة على رحمة اللّه تعالى بالنّاس وقدرته وعظمته سبحانه وبحمده[2].

فجميع ما في الأرض مسخَّر لبني آدم: حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها[3].

ومن المراكب جارية في البحر، وغير ذلك من سائر المسخَّرات[4]، فذلك كلُّه للإنسان يصرِّفه فيما أراد من حوائجه[5].

غرض التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَـن أُحـيـطَ به وبـمـا يـحـويـه كيف يُعجز الله أو يعاديه

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[6]، هذا هو الأصل في معناها.

وقول اللّه تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يشمل ما كان على ظهر الأرض وما كان في باطنها، وما كان بعضه في باطنها وبعضه على ظاهرها كالجبال والأشجار والنخيل، فجذورها ضاربة في الأرض، وفروعها سامقة باسقة؛ فالتَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جعل الأرض محيطة وحاوية لما على ظهرها إحاطة الوعاء أو الظَّرف بما فيه.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(2) الهلال، الثري الجامع: 7/ 345.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 677، وابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 450.
(6) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنَّ المخاطَبين بهذا الخطاب والمنتفعين بما سخَّر الله لهم إنَّما هم محاطون بالأرض تحويهم وتشملهم كأنَّها وعاء لهم ... فأنَّى يُعجزون اللّهَ الذي خلقهم وخلق ما يحويهم ويشملهم؟!

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي التي لبيان الجنس؛ أي: سخَّر لكم ما في الأرض كلِّها، وهذا مناسب لمقام الامتنان، فلم يجعل الله تعالى بعض الأرض مسخَّرًا وبعضها غير مسخَّر.

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾:

كأنَّ الفلك قُريَّة تحملها المياه، رحمة ومنَّة من الله، فتمَّت نعمته في البحر والبرِّ

دلَّ عطف الفلك على تسخير ما في الأرض على عظيم نعمة الله تعالى في البرِّ والبحر، فكما جعل الله تعالى الأرض مذلَّلة للنّاس وسلك لهم فيها فجاجًا سبلًا، وسخَّر لهم فيها مِن جبال وسهول ووديان وأشجار وثمار ومعادن ودوابَّ وبهائم وغيرها، فكذلك سخَّر لهم البحر لتجري فيه الفُلك بأمره؛ ذلك أنَّ الإنسان يستطيع أن يحيا على الأرض بلا واسطة، ولا يستطيع البقاء في الماء إلا بواسطة، فكانت الفُلك كأنَّها قُرَيَّة صغيرة تحملها المياه رحمة من الله تعالى، فشملت نعمته ما في البرِّ والبحر.

فائدة عطف الفلك مع أنّه داخل في حيّز الأرض:

خُصَّت الفلك بالذِّكر لظهور النِّعمة بها والامتنان، وتذكير الإنسان بفضل المنّان

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ على ﴿مَّا﴾ في قوله سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ[1]، وإنَّما أفردها بالذِّكر، وإن اندرجت بطريق العموم تحت ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لظهور الامتنان بها، ووضوح النِّعمة فيها من قِبَل كثرة منافعها، ولعجيب تسخيرها دون سائر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 183.

المسخَّرات[1]؛ ذلك أنَّ تسخير السُّلوك في البحر وحمل البضائع الثَّقيلة في سفينة تجري على ظهر الماء تحرِّكها الرّياح أو المحرِّكات التي سُخِّرت فيها قوانين الكيمياء والفيزياء، وقطعها الأميال وشقِّها الأمواج - كلُّ هذا من أعجب العجب[2]، وأيضًا لأنَّها هي الموجودة ساعة نزول القرآن.

أمّا اليوم فهناك الطّائرات، والغوّاصات، والسيّارات، ووسائل الاتِّصال والتَّواصل[3]، وكلُّ هذا من عظيم نعمة الله تعالى على عباده، ولكنَّ أكثر النّاس لا يشكرون!

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾ هي الجنسيَّة؛ لصحَّة وضع لفظ (كلّ) مكانها، فليس ثمَّة فلك جارية في البحر وأخرى غير جارية، فنعمة الله تعالى على الجميع سارية.

ليس ثَـمَّ فُلك فـي البحر غير جارية، فنعمة الله على الجميع سارية

نكتة التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾:

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ للدَّلالة على تجدُّد الفعل واستمراره، وليفيد بقاءها كذلك مدَّة، فالفُلك تمضي في البحر أيّامًا وربَّما شهورًا، وما من يوم إلّا وفيه فُلك في البحر جاريات، وستبقى النِّعمة إلى ما شاء ربُّ البريّات.

فـــي البـحـر العجاج، وتلاطم الأمـواج، تجري الـفـلـك بأهلها بـريـح طـيِّـبـة، ورفق وتؤدة

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾:

جملة: ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ في موضع الحال من ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جريها[4]، وإنَّما خصَّ هذا بالذِّكر لأنَّ ذلك الجري في البحر هو مظهر التَّسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها

جـــريُ الـفـلـك في الـبـحـر هو مظهر التَّسخير، وظـهـور فضل الله العليِّ الكبير

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، والسمين، الدر المصون: 8/ 302، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020، والهرري، الحدائق: 18/ 409.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 84.

(3) محمود حجازي، التفسير الواضح: 2/ 603.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.

على الصِّفة المعلومة لكان حظُّها من البحرِ الغرقَ[1]، فكانت هذه الحال مبيِّنة لمعنى تسخير الفلك[2].

دلالة التّعبير بـ﴿فِي﴾ الظّرفيّة المجازيّة:

الحرف ﴿فِي﴾ موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة كانت هذه الظَّرفيَّة أم زمانيَّة، حقيقيَّة أم مجازيَّة[3]، هذا هو الأصل في معناه.

تجري الفلك في أمواج كالجبال، ولا يحفظها إلّا الكبير المتعال

و﴿فِي﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مستعمَل في معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة؛ إذ الفُلْك إنَّما تجري على ظهر الماء، ولا تغوص فيه، ولكنَّ التَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة أفاد أنَّ الفلك تشقُّ لها طريقًا داخل الماء وهي تجري على ظهره، فكأنَّه حواها وصار ظرفًا لها، ودلَّ كذلك على أنَّ أمواج البحر كأنَّها جبال تكاد تبتلع الفُلك لولا رحمة الله تعالى بإمساكها وحفظها، وفي ذلك ما فيه من تعديد المِنن، والتَّذكير بالنِّعم.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

تجري الفلك في كلّ البحار، بتسخير من الله الواحد القهّار

(أل) في البحر هي التي لبيان الجنس؛ لصحَّة نيابة (كلّ) عنها؛ أي: تجري الفلك في كلِّ البحار، فلم يمنع الله تعالى بحرًا أن تسير الفلك فيه، بل كلُّ البحار مسخَّرة لجري الفلك فيها، وهذا من تمام نعمة الله تعالى على النّاس.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾:

لولا أمر الله لغرقت الفلك في البحار، فاعتبروا يا أولي الأبصار

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان هذا الإلصاق أم مجازيًّا[4]، هذا هو الأصل في معناها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 564.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ من هذا الإلصاق المجازيِّ؛ إذ جعل أمرَ الله تعالى كأنَّه حبل نجاة، أو شيء عظيم التصقت به الفلك في جريها في البحر، ولولا التصاقها به لغرقت، ففيها كذلك معنى "السَّببيَّة"[1].

فائدة التّعبير بالأمر وإضافتها إليه تعالى:

المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾: التَّيسير والمشيئة[2]، فالأمر هو أمر التَّكوين؛ إذ جعل البحر صالحًا لحملها[3]، وسخَّر لها الماء والرّياح، ولولا ذلك ما جرت[4]، فمعنى ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: بتقديره[5].

لولا تقدير الله ما جـــرت في البحر سفينة، ولا استقرَّت على البرِّ مدينة

وإنَّما قال: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه سبحانه لمّا كان المُجري لها بالرّياح نسب ذلك إلى أمره توسُّعًا؛ لأنَّ ذلك يفيد تعظيمه بأكثر ممّا يفيد لو أضافه إلى فعله بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللَّفظة[6]، فذكر أنَّها ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ مع أنَّ كلَّ شيء بأمره، وذلك لأنَّها في مرأى تسير في البحر ماخراتٍ عُبابَه، لا يسيِّرها شيء إلّا الهواء، فإنَّ التَّعبير ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ في هذا مسايرة لمرأى العين ومجرى الرّيح، وهي آية من آيات الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشورى: 32]، وهي تجري في البحر ناقلةً ما تحمل من خيرات الأرض إلى أقاليم أخرى؛ ولذا قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، فهي تصل النّاس بعضهم ببعض بالمتاجر، والرَّحلات، والتَّعارف والاتِّصال الدّائم بينهم[7].

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 302.
(2) البروسوي، روح البيان: 6/ 56.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(4) الخازن، لباب التأويل: 3/ 263.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 551.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ﴾:

تتعدَّد نعم الله تعالى إلى ما لا يُحصَى، فكيف يُجحَد فضلُه أو يُنسَى

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ عاطفة[1]، حيث عطفت جملتها على جملة: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، من باب تعداد النِّعم.

وقيل: الواو استئنافيَّة، وجملة: ﴿وَيُمْسِكُ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[2]، ومناسبة الابتداء هو الانتقال من بيان نعمته سبحانه في الأرض برًّا وبحرًا بتسخير ما فيها، إلى بيان عظيم منَّته ﷻ في السَّماء بإمساكها كيلا تسقط على الأرض.

لطيفة عطف نعمة الله تعالى بإمساك السَّماء على نعمته بتسخير ما في الأرض:

أتمَّ الله تعالى على عباده النِّعم بأن صرف عنهم كثير النِّقم

لمّا كان إمساك الفلك على وجه الماء - مع لطافته - عن الغرق أمرًا غريبًا كإمساك السَّماء على متن الهواء عن الوقوع، أتبعه قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ ثم فسَّر ذلك بقوله مبدلًا: ﴿أَن تَقَعَ﴾؛ أي: مع علوِّها وعظمها وكونها بغير عماد ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي تحتها[3].

"ومناسبة عطف إمساك السَّماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أنَّ إمساك السَّماء عن أن تقع على الأرض ضربٌ من التَّسخير لما في عظمة المخلوقات السَّماوية من مقتضيات تغلُّبها على المخلوقات الأرضيَّة وحَطْمِها إيّاها لولا ما قدَّر الله تعالى لكلِّ نوع منها من سنن ونُظم تمنع من تسلُّط بعضها على بعض، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 40]، فكما سخَّر الله للنّاس ما ظهر على وجه الأرض من موجودات مع ما في طبع كثير منها من مقتضيات إتلاف الإنسان، وكما سخَّر لهم الأحوال التي تبدو للنّاس

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 344.
(2) محمود صافي، الجدول: 9/ 142.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 84.

من مظاهر الأفق مع كثرتها وسعتها وتباعدها، ومع ما في تلك الأحوال من مقتضيات تعذُّر الضَّبط - كذلك سخَّر لمصلحة النّاس ما في السَّماوات من الموجودات بالإمساك المنظَّم المنوط بما قدَّره الله كما أشار إليه قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾؛ أي: تقديره"[1]؛ لأنَّ النِّعم المتقدِّمة لا تكمل إلّا به، والسَّماء جِرْمٌ ثقيل، وما كان كذلك لا بدَّ له من السُّقوط لولا مانع يمنع منه، وهو القدرة، فأمسكها الله سبحانه وبحمده بقدرته لئلّا تسقط، فتبطل النِّعم التي امتنَّ بها علينا[2].

دلالة التّعبير بفعل الإمساك مادّة وصيغة:

تدور معاني الإمساك حول التَّعلُّق والحفظ والحبس القويِّ للشَّيء عن التَّسيُّب[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: ويمنع وقوعَ السَّماء على الأرض[4]، فيحبسها سبحانه بيد القدرة عن أن تقع على الأرض فتهلك مَن فيها[5]، وأنَّه سبحانه لو شاء لأذن للسَّماء فسقطت على الأرض فأهلكت مَن عليها[6]، فهذه نعمة تمَّت، ورحمة عمَّت.

الله يمسك السَّماء بقدرته، ويمنعها عن الوقوع على الأرض برحمته

والتَّعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار التَّجدُّدي؛ أي: يمسكها آنًا فآنًا من الوقوع[7].

المعاني والدّلالات المحتملة لإمساك السّماء:

تدور معاني الإمساك في القرآن الكريم حول: المراجعة، والحبس، والبخل، والحفظ، والمنع، والإبقاء[8].

جعل الله الأرضَ للخلق قرارًا من غير أن تميد، وجعل السَّماء بناءً من غير وقوع

والإمساك بمعنى اللُّزوم يتعدَّى بالباء، وبمعنى الكفِّ يتعدَّى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322 - 323.
(2) القنوجي، فتح البيان: 9/ 78.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مسك).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 149.
(6) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 811.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 184.
(8) عبد الرحمن فودة، الجامع للوجوه والنظائر في القرآن الكريم: (مسك).

بـ(عن)، وكذا بمعنى الحفظ والبخل، وبمعنى المنع، يقال: أمسكت عنه كذا؛ أي: منعته قال تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الزمر: 38] وكنّى عن البخل بالإمساك.

والمراد بإمساك السَّماء عن الوقوع على الأرض: حفظ تماسكها بقدرته تعالى، وأنَّها ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيء لا لاستمساكها بذاتها[1].

بلاغة التّضمين في الإمساك:

في التَّضمين بيان وإيجاز، وبلاغة متوشِّحة بالإعجاز

من معاني الإمساك: الحفظ، والمنع، والحبس، والشَّدُّ، وهو ضدُّ الإلقاء، وقد ضُمِّن معنى المنع هنا وفي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41] فيُقدَّر حرف جرٍّ لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التَّضمين، فيُقدَّر (عن) أو (مِن)[2].

وهذا التَّضمين ضرب من ضروب الإيجاز من حيث التَّعبير عن معنيين أو أكثر بلفظ واحد يشملهما.

نكتة تقديم تسخير ما في الأرض والفلك على إمساك السّماء:

الانتفاع بالأرضيّات لا يتأتَّى إلّا بعد أمن وقوع السَّماوات

قُدِّم ذِكر النِّعمة بتسخير ما في الأرض على إمساك السَّماء؛ ذلك أنَّ النِّعم المتقدِّمة لا تكمل إلا بهذه؛ لأنَّ السَّماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبًا، ووجب أن يكون ثقيلًا، وما كان كذلك فلا بدَّ من الهويِّ لولا مانع يمنع منه، وهذه الحجَّة مبنيَّة على ظاهر الأوهام[3].

ولا ريب أنَّ الانتفاع بالأرضيّات لا يتأتَّى إلّا بعد الأمن من وقوع السَّماء على الأرض، فمنَّ الله تعالى على المكلَّفين بأن حفظها كيلا تقع أو كراهة أن تقع على الأرض، وذلك بمحض الاقتدار[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 184.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 99.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ هي التي لبيان الجنس، فتشمل كلَّ ما علا الأرضَ، فالمراد بالسَّماء هنا: جنسها الشّامل للسَّماوات السَّبع[1]، فالله تعالى يمسك السَّماوات كلَّها عن الوقوع.

بلاغة الطّباق في ذكر السّماء والأرض:

في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباق إيجاب بين ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، يفيد تقوية المعنى وتوضيحه، وبيان أنَّ نعمة الله تعالى على النّاس قد شملت ما فوقهم وما تحت أرجلهم.

نعمة الله تعالى تمَّت، ورحمته وسعت وعمَّت

أثر معاني الآية في تنوّع دلالات ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

"لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: ما قابل الأرضَ في اصطلاح النّاس، فيكون كُلًّا شاملًا للعوالم العلويَّة كلِّها التي لا نحيط بها علمًا كالكواكب السَّيّارة وما الله أعلم به وما يكشفه للنّاس في متعاقب الأزمان، ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسُّقوط فيكون المعنى: أنَّ الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسَّماء نظامًا يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ امتنانًا على النّاس بالسَّلامة ممّا يفسد حياتهم"[2].

الله تعالى يحفظ السَّماء وما تحويه عن الوقوع، فحُقَّ للعباد أن يذعنوا له في خضوع

ويجوز أن يكون لفظ السماء بمعنى المطر، "فيكون معنى الآية أنَّ الله بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدَّر أسبابها، وأنَّه لو استمرَّ نزول المطر على الأرض لتضرَّر النّاس فكان في إمساك نزوله باطِّراد مِنَّةٌ على النّاس، وكان في تقدير نزوله عند تكوين الله إيّاه مِنَّة أيضًا، فيكون هذا مشتملًا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث، ونعمة السَّلامة من طغيان المياه.

وَجْـــهٌ على معنى الغيث والموجودات العلويّة من باب المجاز، علاقته المكانية أو الظرفية

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323 - 324.

ويجوز أن يكون لفظ السَّماء قد أُطلق على جميع الموجودات العلويَّة التي يشملها لفظ السَّماء الذي هو ما علا الأرض فأُطلق على ما يحويه، كما أُطلق لفظ الأرض على سُكّانها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرعد: 41]، فالله يمسك ما في السَّماوات من الشُّهب ومن كريّات الأثير والزَّمهرير عن اختراق كرة الهواء، ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبَرَد والثَّلج والصَّواعق من الوقوع على الأرض والتَّحكُّك بها إلّا بإذن الله فيما اعتاد النّاس إذنه به من وقوع المطر والثَّلج والصَّواعق والشُّهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب"[1].

نكتة إفراد لفظ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

أُفرِد لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ لأنَّه مرادٌ بها جنسُها، فلا يراد العدد فحسب، ولا يراد معنى الجمع للتَّكثير؛ بل ليشمل كلَّ ما علا الأرضَ ممّا تصحُّ تسميته بالسَّماء، مِن سُحُب وشُهُب ونيازك وكواكب سيّارة، وغيرها.

يـمـنُّ الـلـه عـلـى عـبـاده بـحـفـظـهـم، وتدبير أرزاقهم

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّها في محلِّ نصب أو جرٍّ لأنَّها على حذف حرف الجرِّ تقديره: (من أن تقع).

والثّاني: أنَّها في محلِّ نصب فقط؛ لأنَّها بدل من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بدل اشتمال؛ أي: (ويمسك وقوعها يمنعه).

والثّالث: أنَّها في محلِّ نصب على المفعول من أجله، فالبصريّون يقدِّرون: (كراهة أن تقع)، والكوفيّون: (لئلّا تقع)[2].

يـحـفـظ الـلـه السَّماء مِن أن تقع على الأرض فتهلك الخَلق؛ رحمةً مِن الله المَلِك الحقّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323 - 324.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، والسمين، الدر المصون: 8/ 302.

دلالة التّعبير بالوقوع مادّة وصيغة:

في الوقوع عذاب أليم، ومكروه عظيم

تدور معاني الوقوع حول الهويِّ والسُّقوط، غير أنَّه هويٌّ مع صدم أو غِلَظ وشِدَّة، فلذلك لا تقال الواقعة إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائد[1].

ولمّا كان سقوط السَّماء على الأرض فيه صدمٌ كبير، وشدَّة بالغة، ومكروه عظيم؛ عُبِّر عنه بالوقوع لأجل ذلك.

معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

ما يمسك السَّماءَ إلّا الذي بغير عمَدٍ رفعَها، وأنزل للمخلوقات منها رزقَها

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾؛ أي: إلّا بإذن الله لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي بإرادته وتخليته[2]؛ أي: لو شاء الله تعالى لأذِن للسَّماء فسقطت على الأرض، فهلك مَن فيها، ولكن مِن لطفه ورحمته وقدرته سبحانه يمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه[3]، فما يمسكها ويحفظها إلّا ذلك، رحمةً بكم، فاشكروا آلاءه وحده[4].

وهذا الاستثناء مفرَّغ مِن أعمِّ الأسباب والأحوال، ولا يقع في موجَب، ولكنَّه وقع فيه هاهنا لصحَّة إرادة العموم، ولأنَّه لمّا كان الكلام قبله في قوَّة النَّفي ساغ ذلك، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ﴾ فيه معنى النَّفي؛ إذ التَّقدير: (لا يتركها تقع في حالة من الأحوال، ولا يتركها تقع بسببٍ مِن الأسباب؛ كمزيدِ مرور الدُّهور عليها، وكثقلها بما فيها إلّا بسبب مشيئته وقوعَها)، فـ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر[5].

فمعنى الآية: لا تقع السَّماء على الأرض بغير إذنه، ولا يقتضي ذلك الإذنَ بالوقوع في وقت من الأوقات ولا عدم وقوعها[6].

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وقع).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 93.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 272.
(5) السمين، الدر المصون: 8/ 303، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 184، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471، ومحمود صافي، الجدول: 9/ 141.
(6) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 6/ 345.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

لا يقع شيء في ملكوت الله تعالى إلّا ملابسًا لإذنه ومشيئته، فأعظِم بقدرته

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الملابسة والإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1].

وهذا الأخير هو المراد هنا، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾ في معنى الحال؛ أي: لا تقع السَّماء على الأرض إلّا ملتبسة بأمره[2]، فالباء للملابسة[3]؛ أي: يمنع ما في السَّماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلّا وقوعًا ملابسًا لإذنٍ من الله[4].

بلاغة الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

جُمِعَ بين الامتنان والتَّخويف؛ ليستزيد النّاس مِن شكر النِّعم، وليخافوا غضب ربِّهم

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه السَّماء المرفوعة المحفوظة بقدرة الله، هي خاضعة لإرادة الله، وأنَّه من الممكن أن يأذن الله لها بأن تسقط على الأرض[5]!

فهو احتراس جمعًا بين الامتنان والتَّخويف، ليكون النّاس شاكرين مستزيدين من النِّعم خائفين من غضب ربِّهم أن يأذن لبعض السَّماء بالوقوع على الأرض[6].

بلاغة الإدماج في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

أُدمِج بين الأمن والخوف؛ ليكون النّاس في نزول المطر راغبين، ولنزول الكِسَف راهبين

الإذن حقيقته: قول يُطلَب به فعل شيء، واستُعير هنا للمشيئة والتَّكوين، وهما متعلَّق الإرادة والقدرة[7].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إدماج بين الامتنان والتَّخويف: فإنَّ مِن الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للنّاس، ومنه ما هو مكروه، وهذا أنسب بالإعجاز[8].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 303.
(3) القنوجي، فتح البيان: 9/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 324.

دلالة الاستثناء على المحذوف:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأنَّ طيَّ السَّماء ونقض هذه الهيئة كوقوعها، ويحتمل أن يريد بذلك: الوعيدَ لهم في أنَّه إن أذِن في سقوطٍ لكَسَفَها عليهم سقطت، كما في قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92] وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ متعلِّق بأن تقع؛ أي: إلّا بإذنه فتقع.

لو أذن الله للسَّماء لسقطت كِسَفًا، ولنَسفَتْ جميعَ ما على الأرض نَسْفًا

ويحتمل أن يعود قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ على الإمساك؛ لأنَّ الكلام يقتضي (بغير عَمَد) ونحوه، فكأنَّه أراد: (إلّا بإذنه فيه يمسكها)[1]؛ أي: يدلُّ بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلَّق أخذًا من قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] ونحوه فكأنَّه أراد: (إلّا بإذنه فيمسكها)[2].

غرض جمع مظاهر قدرة الله تعالى في البرّ والبحر والجوّ:

ينبّه الله عباده لشكر نعمته، وتعظيمه وعبادته، والحذر من نقمته

امتنَّ الله تعالى على عباده بذكر عظيم نعمته عليهم في البرِّ بتسخير ما فيه ممّا يحتاجون إليه من الدَّوابِّ والشَّجر والأنهار[3]، وفي البحر بتسيير السُّفن فيه كالأعلام، وفي السَّماء برفعها وحفظها من الوقوع على الأرض ذكر نعمة أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده، فاستوعبت الآية العوالم الثَّلاثة: البرَّ، والبحر، والجوَّ[4].

والغرض من ذلك إيقاظ لمشاعر الإنسان ومدركاته؛ ليمدَّ بصره إلى ما فوق هذه الأرض بعد أن يثبِّت قدمه عليها، فينظر في ملكوت السَّماء، وعندئذ يرى أنَّ هذا السَّقف المرفوع فوقه تمسكه قدرة الله، وأنَّه لولا هذه القدرة لسقط على الأرض، وأهلك كلَّ حيٍّ فيها[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 131، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 534.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

الـلـه بـعـبـاده رؤوف رحـيـم؛ حيث فتح لهم بـاب الـعـلـوم، وهـيَّـأ لـهـم أسباب الفُهوم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئناف بيانيٌّ[1] ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾؛ فكأنَّه سُئِل عن سبب ذلك، فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فهي جملة تعليليَّة لما في ضمن قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ من الامتنان[2]؛ أي: لو شاء لأذِن للسَّماء فسقطت على الأرض، فهلك مَن فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم[3]، فوقع التَّذييل موقع التَّعليل للتَّسخير والإمساك باعتبار الاستثناء؛ لأنَّ في جميع ذلك رأفةً بالنّاس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضُّرِّ عنهم[4].

فائدة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

جـاء الـتَّـوكـيـد لترسيخ المعنى فـي الـنُّـفـوس وتـقـريـره، لتعظيم الله تعالى وتوقيره

لقد أكَّد سبحانه رأفته ورحمته بالنّاس بعدَّة مؤكِّدات، **أوَّلها:** ﴿إِنَّ﴾، **وثانيها:** تقديم ﴿بِٱلنَّاسِ﴾، **وثالثها** بـ(اللّام)، **ورابعها** بالتَّعبير بالصِّفة المشبَّهة، وقد حسن التَّوكيد هنا لأنَّ هذه الجملة السّامية جاءت في مقام التَّعليل لما سبق من تصرف الله سبحانه في الكون[5]، فحسن أن تؤكَّد ليتقرَّر المعنى في النُّفوس؛ فإنَّ منهم المنكر، والشّاكَّ، والمتردِّد.

نكتة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

في إظهار لفظ الجلال توكيد وتقرير لجمع صفات الكمال

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ خروج عن مقتضى الظّاهر إذ عُدِل عن الإضمار (إنَّه) للإظهار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

(1) محمود صافي، الجدول: 9/ 142.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5021.

لنكتة بلاغيَّة هي زيادة تمكين ما استُخدِم للدَّلالة عليه الاسم الظّاهر بدل الضَّمير، فالله سبحانه وحده هو مَن سخَّر ما في الأرض وما في البحر، وهو وحده الذي رفع السَّماء فأمسكها كيلا تقع على الأرض، ففيه مزيد مِن التَّقرير، وفيه كذلك ما فيه مِن إدخال الرَّوعة والمهابة من قِبَل أنَّ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ علَم على الذّات العليَّة، فهو جامع لكلِّ صفات الكمال والجلال.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

رأفة الله تعالى لابست النّاس كالشِّعار، والرَّحمة فوقها كالدِّثار

(الباء) حرف موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ للإلصاق المجازيِّ، فكأنَّ رحمة الله تعالى ورأفته قد لابست النّاس كالدِّثار أو الشِّعار، ولولا رحمته سبحانه ورأفته لما شعر أحد بالأمن والاستقرار[2].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

عمَّت رحمة الله تعالى كلَّ الخلائق، وشملت العظائم والدَّقائق

(أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ هي التي لبيان الجنس، فيصلح مكانها لفظ (كلّ)؛ فرحمة الله تعالى عمَّت جميع الخلائق في الدُّنيا بتسخير ما في الأرض، وتسيير الفُلك، وتدبير الأرزاق، يستوي في هذا المؤمن والكافر، أمّا الآخرة فهي للمتَّقين، ولن يرحم الله تعالى فيها الكافرين.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

في التَّقديم اهتمام وتكريم

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ للاهتمام به[3]؛ لأنَّه المقصود لبيان رحمته[4]، ولمّا كان الجماد كلُّه متاعًا للحيوان اقتضى تقديم النّاس[5].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) الهلال، الثري الجامع: 7/ 346.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(4) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 85.

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ هي المزحلَقة الواقعة في خبر ﴿إِنَّ﴾، والمقصود منها: التَّوكيد: توكيد الرَّأفة والرَّحمة[1].

توجيه القراءات في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ وبلاغتها:

الله تعالى رؤوف بعباده إذ أعطاهم ما يحتاجون، وصرف عنهم ما يحذرون

قرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائيُّ، ويعقوب، وخلف العاشر بقصر همز ﴿لَرَءُوفٌ﴾ من غير واو على وزن (نَدُسٍ)[2]، هكذا: ﴿لَرَؤُفٌ﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم وابن عامر: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بالمدِّ ك: (عَطُوف)[3].

ووجه قراءة من قرأ: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ أنَّ فعولًا بناء أكثر في كلامهم من فعُل، فإنَّ باب ضروب وشكور أكثر مِن باب حذر، وحدث، ويقظ، وإذا كان أكثر على ألسنتهم كان أولى ممّا هو بغير هذه الصفة، ومن قرأ: ﴿لَرَؤُفٌ﴾ فقد زعموا أنَّ ذلك الغالب على أهل الحجاز[4].

فائدة تذييل الآية بهذين الاسمين الجليلين:

عدَّد آلاءه مقرونة بأسمائه؛ ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بمعنى: أنَّه بهم لذو رأفة ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وسخَّر لهم ما وصف في هذه الآية تفضُّلًا منه عليهم بذلك[5].

يعني: أنَّه أنعم بهذه النِّعم الجامعة بمنافع الدُّنيا والدّين وقد بلغ الغاية في الإنعام والإحسان فهو إذن رؤوف رحيم بعباده[6].

والجمع بين هاتين الصِّفتين يفيد ما تختصُّ به كلُّ صفة منهما

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 202.
(2) وَرَجُلٌ نَدْسٌ ونَدُسٌ ونَدِسٌ: أَي فَهِمٌ سَرِيعُ السَّمْعِ فَطِن، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 6/ 229.
(3) الفارسي، الحجة: 2/ 229، وابن الجزري، النشر: 2/223، والبنا، الإتحاف، ص: 194، و401.
(4) الفارسي، الحجة: 2/ 229.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 678، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 248، وابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(6) الخازن، لباب التأويل: 3/ 263.

ويؤكِّد ما تجتمعان عليه[1]، وفيه تطمين للنّاس بأنَّ السَّماء لن تقع عليهم، وذلك لرحمته ﷻ ورأفته بعباده.

ومع هذا كلِّه فإنَّ كثيرًا من عباده يجحدون نعمة اللّه، ويكفرون به، ويعبدون غيره، من أحجار، وحيوان، وإنسان[2].

الغرض من تقديم صفة الرّأفة على الرّحمة:

الرَّأفة: ما تقتضي درء المضارِّ، والرَّحمة: ما تقتضي جلب المصالح، ولكون درء المضرَّة أهمَّ من جلب المصلحة قُدِّم رؤوف على رحيم[3]، وأيضًا لأنَّ الرَّؤوف أبلغ من الرَّحيم، وفي التَّقديم محافظة على الفاصلة[4].

الرَّأفة أبلغ من الرَّحمة، وهي أنسب لدرء المضرَّة، وتلك مِن نقيضتها أولى

أو لأنَّ الرَّأفة تناسب تسخير ما في الأرض، وتسيير الفلك على الماء، والرَّحمة تناسب إمساك السَّماء لئلّا تقع على الأرض[5]، ولمّا كان ذكر تسخير ما في الأرض مقدَّمًا على ذِكر إمساك السَّماء ناسَبَ أن يُقدَّم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾.

نكتة تنكير الاسمين الجليلين:

جاء الاسمان الجليلان في خاتمة الآية الكريمة نكرتين لإرادة التَّعظيم، وإفادة التَّعميم، فرحمته سبحانه شاملة، ورأفته تعالى كاملة، فقد عمَّتا كلَّ شيء، ونال منهما كلُّ فرد من أفراد جنس النّاس نصيبه وافرًا.

في التَّنكير إجلال وتعظيم، وإفادة للشُّمول والتَّعميم

فائدة المبالغة في هذين الاسمين الجليلين:

جاء الاسمان الجليلان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغة المبالغة لإفادة كثرة متعلَّقات هاتين الصِّفتين

اللّه العظيم بالغُ الإنعام والإحسان، عظيم الرَّأفة والرَّحمة والامتنان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 150.
(5) سعيد حوي، الأساس في التفسير: 7/ 3584.

الحسنيين، ولتوكيدهما عن طريق المبالغة فيهما، والمبالغةُ في حقِّ اللّه تعالى لا تعني زيادةَ الفعلِ، بل تعني: تعدُّدَ المفعولاتِ وكثرةَ المتعلَّقات[1]، ولتنزيههما عن كلِّ ما يُتوهَّم من الشَّبَهِ بهما، فالمعنى أنَّ المنعِم بهذه النِّعم الجامعة لمنافع الدُّنيا والدّين قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام، فهو إذن ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ألم تر) و(ألم تعلم):

التعبير بـ(ألم تعلم) أعمّ

الفرق بينهما أنَّ التعبير بـ(ألم ترَ) يتحقَّق العلمُ فيه بنظر العين والقلب والتفكّر والاعتبار، والرؤية في هذا التعبير يقترن بها العلم؛ لأنَّه إذا لم يقترن بها كانت كأنّها لم تحصل[3]، أمّا التعبير بـ(ألم تَعلم) فهو أعمّ؛ لأنَّ العلمَ يتحقَّق فيه بما سبق وبغيره، بالسَّماع أو الرؤية أو بهما معًا؛ ولا يقال لِمَن سمع الشيءَ فتحقَّق لديه العلمُ بالسَّماع فقط: (ألم ترَ)، وهذا يدلُّ على أنَّ العلمَ لا يشترط فيه أن تقترن به الرؤية البصَريّة.

إمساك السّماء ورفعها:

الإمساكُ مَنع، ورفـع السماء خلقها مرتفعة

الرَّفع: ضدُّ الوضع والخَفض[4]، والمعنى المحوريّ للجذر: جذب الشيء أو دفعه مسافة إلى أعلى بقوَّة[5]، ورفعُ السماء في قول اللّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] يعني: أنَّ اللّه ﷻ خلقَ السماءَ مرتفعةً، كما يقال: وسِّعْ طَوقَ الجُبَّة وضيِّقْ كُمَّها، لا يُراد وسِّعْه بعد أن كان ضيِّقًا ولا ضيِّقْه بعد أن كان واسعًا، وإنَّما يُراد اجعله واسعًا واجعله ضيِّقًا، فليس المراد أنَّ اللّه ﷻ رفعَها بعد أن كانت منخفضة[6].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 507.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 531، وابن عادل، اللباب: 14/ 136.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رفع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 80.

أمّا الإمساك فأصله يدلُّ على الحَبس[1]، والمعنى المحوريّ لجذره: ضبط الشيء أو حَبسه حبسًا قويًّا في حيِّز فلا يتسيَّب[2]، كالمَسْك (بالفتح): الجِلد[3]؛ فهو يَحبِس ويضبط ما بداخله من الجسم[4].

والإمساكُ في قول الله ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ بمعنى المَنع؛ أي: ويمنع وقوع السماء على الأرض[5]، وهو بمعنى المنع أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: 41]، أي: إنَّ الله يمنع السماوات والأرض أن تزولا[6].

السُّقوط والوقوع:

الوقوعُ أشدُّ من السُّقوط

الفرق بينهما أنَّ الهويَّ في السّقوط يكون بعد انقطاعٍ أو انفصالٍ من حيِّز[7]؛ فيُعبَّر بالسُّقوط عن هويّ الجزء الذي كان متَّصِلًا بالكلّ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59]؛ والورقة جزء من الشجرة، وهنا ملحظٌ آخر، وهو أنَّ الوقوع فيه معنى الشِّدة؛ فلمّا كان هويّ الورقة على الأرض ليس فيه شِدَّة الاصطدام وكانت الورقةُ جزءًا من الشجرة، أوثِرَ في الآية السقوط دون الوقوع.

وقال الله ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: 44]، الكِسْف: القِطعة[8]؛ فلمّا كان الهويُّ هويَّ قطعةٍ من السماء، أي: جزء منها، أوثِرَ في الآية لفظ السقوط دون الوقوع.

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (مسك).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (مسك).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 617، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 356، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سقط).
(8) الزمخشري، الكشاف: 4/ 415، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 156.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»